# عملانية ابن خلدون: سيناريو التشكل المحتمل

**أنور خالد الزعبي***

**مقدمة:**

فكر ابن خلدون لافت للنظر في الثقافة العربية الإسلامية، بل الثقافة الإنسانية بأسرها؛ لتضمنه الجديد غير المألوف. ولطالما كان مناط اهتمام الباحثين والدارسين؛ لكشف ما فيه من جدة وأصالة، ومحاولة تفسير كيفية تأسيسه لمعارف جديدة: كفلسفة التاريخ، وعلم الاجتماع، وركونه إلى نزعة اسمية واضحة، شكلت بعدا مرجعيا لفكره، وحكمت حصيلته الوافرة من المعلومات والتوجهات.

والإشكالية التي يثيرها فكر ابن خلدون، هي أننا لا نقف من خلال مؤلفاته على ذلك الجهد التنظيري الكبير، ولا الحجاج المستوفى، أو تلك المحاكمات النقدية المضنية، التي تواكب عادة إنجاز مثل هذا العمل، بل يكاد معظم نتاج ابن خلدون يتسم بأنه يسير سهل، يجري مجرى السلاسة والاعتياد، على الرغم مما فيه من جدة، وأصالة، وعمق. ولو عدنا إلى فحص مؤلفات فحول الثقافة العربية الإسلامية، وابن خلدون لا يقل شأنا عنهم: كابن حزم، والغزالي، وابن رشد، وابن تيمية، فسنجد أن الجديد الذي قدموه قد استند إلى محاكمات شاقة، وجهد كبير؛ كي يحققوا ما حققوا من النظريات والمعلومات، وأنهم كانوا يستقصون ويستوفون المسائل استيفاء كبيرا، مما تتضمنه مؤلفاتهم الكثيرة الموسوعية، بمجلداتها العديدة، واستقصاء وجوه الأدلة والبراهين للظفر بحكم ما.[1] فكيف تسنى لابن خلدون من خلال مؤلف واحد هو (المقدمة)، في فترة قصيرة، هي خمسة أشهر، من أن يؤسس لعلوم جديدة، ويجلي علوما قائمة؟!.وإلى أي منهجية كان يستند؟ وهل هي مختلفة؟ وبم تتميز؟!

---

* دكتوراه في الفلسفة الإسلامية، باحث أردني، dr.alzoubi_anwar@yahoo.com

(1) راجع، على سبيل المثال: الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم، وإحياء علوم الدين للغزالي، ودرء تعارض العقل والنقل لابن تيمية، وما تنتظمه من عروض تدليلية شاقة ومضنية.

وهل يمكن رد هذا إلى متابعة ابن خلدون لإنجازات علماء سابقين له وتراكمها؟ أو يمكن رده إلى عبقرية متفردة ظهرت فجأة بنوع من الطفرة؟ أو إلى ظروف العصر وأحداثه؛ إذ كانت تشغل موطنه ومجال تحركه؟ (2) ولماذا ابن خلدون بالذات؟ فهل هناك سمات شخصية محددة، أو نوازع خاصة، هي التي فعلت فعلها في إنجازه؟!

بطبيعة الحال يمكن رد بعض نتاج ابن خلدون إلى مؤثر هنا، ومؤثر هناك، ولكن لا يمكن رد جميع ما أنجزه، أو أبرزه- على الأقل- لهذا. الأمر الذي يدفعنا إلى البحث عن السبب الكافي الكامن وراء هذا، أو الدافع إليه. ومما يلفت النظر أن ملامح شخصية ابن خلدون، حين تستقصي، تعد بسيطة التركيب، طيعة التشكل، وهي مختلفة عن شخصيات نظرائه من المفكرين والمصلحين في الثقافة العربية الإسلامية. فإذا كان معظمهم يتسم بالصلابة، والنزعة المثالية، والنموذج القدوة في القول والسلوك، فإننا نجد أن ابن خلدون على خلاف هذا؛ إذ تتسم شخصيته بالنفعية والوصولية، من غير أن يحاول مداراة هذا الأمر، فقد أشهر بخط يده ما فيه من عيوب وتصرفات، قد يحرص غيره على طيها، أو عدم الإفصاح عنها طواعية. وهذا الأمر يدعو إلى محاولة تقصي أسباب هذا الإفصاح والدافع إليه. وفي تقديري فإن السبب يعود إلى ما يمكن أن نلمسه من عملانية في فكر ابن خلدون وسلوكه؛ (3) أي: تعلقه بالأمور العملية دون النظرية، والواقعية دون المثالية، والذارئعية دون المبدئية، وهو قد أشهر ما أشهر؛ كي يوضح لنا أهمية هذا الجانب وتقديمه له على غيره. ومما يؤكد ذلك أنه يعرض لنا من خلال كتابه (التعريف بابن خلدون)، الذي ألحقه بالمقدمة والتاريخ، مجريات حياته العملية على

(2) هذه الآراء وغيرها أوردها أكثر من باحث. انظر على سبيل المثال لا الحصر:
- الوردي، علي. **منطق ابن خلدون**، لندن: دار كوفان، ص 103.

(3) عمدنا إلى وسم فكر ابن خلدون بالعملاني لاعتبارات عدة، منها: أن معظم الجديد الذي أبدعه يتعلق بالناحية العملية السلوكية؛ أي: في الحقول السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية عموما، وكذلك ركونه إلى نزعة اسمية واضحة في كل نتاجه، وهي معنية بما هو جزئي ومُشَخص، وتستبعد ما هو كلي وعام، وتُعَد الكليات تسميات فحسب، لا وجود واقعيا لها، يضاف إلى هذا نزعته الذرائعية، والذرائعية توصف أحيانا بالعملية. وأخيرا -كما يرى هذا البحث- لا يمكن تفسير كيفية توصله إلى ما وصل إليه إلا من خلال شخصيته، وسيرة حياته، وسلوكه العملي.

علاتها؛ كي يوقفنا على ارتباط ما توصل إليه بما تأثر به ومارسه خلال مسيرته، وذلك عن قصد وتصميم.

ومن هنا يرى البحث، أن شخصية ابن خلدون العملانية هي التي كانت وراء كل إنجازه المتميز. وأعني بالشخصية العملانية، فضلا عن تقديم العمل على النظر، طبيعة الحياة النفعية التي مارسها ابن خلدون، وما كان يحرك نشاطه من دوافع وميول، بلغت حد الهاجس في التأثير في سلوكه ونتاجه. وبجلاء هذا سنقف بشكل سببي ودافعي، على كيفية إنجاز ابن خلدون لعلومه الجديدة.

**أولا: الشخصية العملانية:**

ينبغي علينا أن نرجع إلى ظروف حياة ابن خلدون، ونمط شخصيته، والمؤثرات التي فعلت فعلها فيها، والأساليب التي كان يتبعها، حتى نستطيع تفسير الأمر، أو مقاربته على الأقل، وإعادة تجميع الصورة على شكل سيناريو. وإذا عدنا إلى منجزه ذاته (المقدمة)، دون أخذ سيرته بعين الاعتبار، فإن ذلك لا يطلعنا كثيرا على تميز دراسته، ومطالعاته، وخبراته العامة. فهذه جاءت في معظمها شبه خلاصات إلى ما انتهت إليه العلوم في عصره، وهي- بلا شك- تنطوي على جهد تعلمي وتعليمي كبيرين، ولكنها لا تنطوي على جهد تنظيري مضن وشاق كما أسلفنا، على الرغم من النظرات النافذة والمؤثرة التي كان يوردها من حين إلى آخر. وهذه، لا يمكن بحال، قياسها إلى منجزاته التأسيسية للعلوم: كفلسفة التاريخ، وعلم الاجتماع. بل جاء فيها ما هو فج، لم يخل فيه من التسرع، حتى في المعلومات والاستنتاجات التاريخية التي كان يسعى، في مقام أولي، إلى ضبطها وتخليصها مما علق بها من أوهام. (4)

(4) يرى ابن خلدون، في معرض نقده للفلاسفة في مجال العلم الطبيعي، أن: "المعقولات الأول أقرب إلى مطابقة الخارج لكمال الانطباق فيها، إلا أنه ينبغي لنا الإعراض عن النظر فيها، فإن مسائل الطبيعيات لا تهمنا في ديننا ولا معاشنا." انظر:
- ابن خلدون، عبد الرحمن. **المقدمة**، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، ط3، القاهرة: دار نهضة مصر، ج3، ص1213. وانظر قوله: "إن الكَيَْسَ والذكاء عيب في صاحب السياسة؛ لأنه إفراط في الفكر، كما أن البلادة إفراط في الجمود، والطرفان مذمومان من كل صفة

ومن حسن الحظ أن ابن خلدون قد دون سيرته بنفسه، بتزامن ومواكبة مع المقدمة، ولهذا أهميته التي كان يدركها ابن خلدون، فيما نرى، وإذا سبرنا غور هذه السيرة يتوضح لنا أن مجريات حياته كانت مستغرقة في التعلم، وفي ممارسة العمل في الحقلين: السياسي، والدبلوماسي في البداية، ثم حقل التعليم الذي استقر فيه لاحقا؛ إذ عمل في مستهل حياته موظفا صغيرا، فكبيرا، لصالح جهات عديدة، كما أوفد في مهام دبلوماسية مميزة، سواء لإجراء المفاوضات، أم تألف القبائل لصالح السلاطين الذين كان يعمل لحسابهم، وهم كثر؛ مما جعله دائم التنقل والترحال، وهذا مكنه من ملاحظة اختلاف المجتمعات، وتباين الأحوال.

أما التعليم الذي مارسه فقد كان رسميا نمطيا، يتعلق أكثر ما يتعلق بالفقه المالكي. غير أنه كان يعوض هذا من خلال مجالسة العلماء ومناظرتهم، طارحا أفكاره الخاصة حول علومه الجديدة، وإن لم يكن متمكنا كل التمكن من العلوم العقلية. وما كان يورده في هذه العلوم يرتكز- في معظمه- على خلاصات عصره فيها، وربما آراء أساتذته، مع نظرات شخصية له نافذة وهامة.

ولو عدنا إلى الناحية السلوكية في حياة ابن خلدون، لما وجدنا تلك الواقعة الفعلية، أو الحدث الهام، الذي يمكن له أن يكون قد أخضع سلوك ابن خلدون لهذا الشيء أو ذاك. غير أن اهتمامات ابن خلدون على المستوى الشخصي وتطلعاته -كما سنتعرف- يمكن لها أن تلعب هذا الدور الخطير في تحقيق ما هو مناط اهتمامه.

**ثانيا: الهاجس الخلدوني التوجه السياسي والعلمي:**

---

إنسانية، والمحمود هو المتوسط." **المقدمة**، ج 2، ص576. وانظر أيضا تعقب أخطائه التأريخية في المقدمة في:

- علال، خالد كبير. **أخطاء المؤرخ ابن خلدون**، الجزائر: دار الإمام مالك، 2005م.

وحتى يمكن تجميع خيوط هذه المسألة، لا بد لنا من ملاحظة هاجس تملك ابن خلدون، منذ بداية نشأته، ألا وهو ذلك الإرث العائلي. فقد اشتهر عن أسرة ابن خلدون، التي تعود بنسبها إلى إحدى القبائل اليمنية الشهيرة، بأنها ذات رياسة سلطانية، ورياسة علمية، منذ جدها الأول خلدون الداخل. ويركز ابن خلدون على إيراد هذه المسألة نقلا عن ابن حيان، ويستهل بها التعريف بنفسه؛ إذ يورد نصا لابن حيان يقول فيه: "وبيت بني خلدون إلى الآن (عصر ابن حيان) في إشبيلية نهاية في النباهة، ولم تزل أعلامه بين رياسة سلطانية ورياسة علمية، وبيتهم إلى الآن في إشبيلية، ثابت الأصل، نابت الفرع، موسوم بالرياسة السلطانية والعلمية."[5]

وإزاء هذا النص نحن أمام عدد من القضايا ممثلة في: النباهة لآل خلدون، والرياسة السلطانية والعلمية، المستمرة في العائلة، ثم الفروع النابتة من تلك الأصول، ومن بينهم جداه القريبان، اللذان توليا الحجابة لبعض السلاطين. ويشيد ابن حزم بنسب أسرة بني خلدون واصفا إياهم "أنهم من أعظم ثوار الأندلس."[6] والنصان السابقان، المنسوبان لابن حيان وابن حزم، لهما دلالتهما من حيث السند والمتن، فلابن حزم وابن حيان مكانتهما التوثيقية في علم الخبر والأنساب. وأما من حيث المتن، فهو ينتمي إلى أسرة عريقة ذات قيم اجتماعية متميزة، سواء في: الثورة، أم في ممارسة السلطة، أم في المكانة العلمية. وهذا ما نرى أنه شكل هاجسا طاغيا لابن خلدون منذ بداية أمره، ويفسر لنا حرص ابن خلدون على ملازمة السلاطين مهما كان شأنهم، وتقلبه في دواوينهم، وركوب الخطر معهم، ونفهم من خلاله، اضطرار ابن خلدون لقبول وظائف بسيطة، مثل عمله كاتبا للعلامة في أول أمره، رغم كرهه لهذا. فلولا تطلعات ابن خلدون، وهاجسه الضاغط، لما كان لهذه الوظائف من شأن لديه. لكنها، فيما قدر، تقربه إلى عالم السياسة، وتضعه قرب الأحداث، وربما وسطها بعد حين، والاختلاط المباشر بمن في يدهم مقاليد الأمور، ويساعده في هذا نباهته ووصوليته.

(5) ابن خلدون. **التعريف بابن خلدون**، بيروت: دار الكاتب اللبناني، 1979م، ص7.
(6) المرجع السابق، ص3، 5.

**1- التوجه السياسي:**

بعد فترة مضطربة، نجد ابن خلدون يتقلد مناصب أرفع في بلاط إثر آخر، الأمر الذي بات معه ابن خلدون منغمسا في عالم السياسة. غير أن الهاجس الخلدوني ما زال يضغط باتجاه إنجاز ملموس في عالم السياسة، يتعدى الأحوال المتقلبة، أو البقاء عند حدود الامتثال للأوامر؛ كي يكون بالإمكان ضم ابن خلدون إلى ركب أسرة ذوي رياسة سلطانية. ومن هنا ثابر ابن خلدون على محاولة تحسين موقعه السياسي في خضم الأحداث المتصارعة في المغرب، فعمل على تحين الفرص لتحقيق هذه الغاية، سواء بعرض خدماته على الطامعين في الحكم، أم الانخراط في بعض المؤامرات والدسائس التي كانت تحاك ضد هذا الأمير أو ذاك. ومع أن مسعى ابن خلدون قد أخفق في كثير من المحاولات؛ مما جر عليه الخصومات والويلات، إلا أنه كان ينجح أحيانا. ومهما يكن من أمر، فقد كان على استعداد لتغيير جلده السياسي تبعا لاستهدافه رياسة سلطانية دون عناء كبير، وتكرر المشهد أثناء دعوته إلى الأندلس التي خرج إليها؛ تخلصا مما لحقه بالمغرب والأجواء المتوترة فيه. فلاحقته الخشية منه في البلاط الأندلسي، الذي اضطر- أيضا- إلى مغادرته والعودة إلى المغرب، وقد سنحت له الفرصة بدعوته لتولي منصب الحجابة لصالح سلطان كان مسجونا وإياه لفترة.

وقد أهل السلوك الذرائعي ابن خلدون إلى تقلد مناصب مهمة: كالحجابة، وهذا يشكل إنجازا كبيرا، لكنه، على ما يبدو، أقل من مطامح ابن خلدون برئاسة سلطانية ثابتة راسخة. بل ربما كانت تطلعاته أكبر من هذا؛ إذ نظره نحو الرئاسة الأولى. ويؤيد هذا سيرته السابقة، وخواطره اللاحقة حول نشأة الدول واستمرارها، وعمله في الوقت ذاته لأكثر من جهة، وخشية الأمراء منه، حتى من يكلفونه بمهام أساسية لتوطيد سلطانهم، رغم عدم الثقة المطلقة به. وهو يرد هذا إلى كيد السعاة والوشاة، وإلى أسباب كان يتذرع بها. (7) لكن الجميع كان يشعر بأهميته وقدراته على الإدارة، وتألف القبائل، وهذا شكل،

(7) المرجع السابق، ص261.

إلى حد ما، بعض الحماية له، وأبقاه مثار اهتمام واستقطاب أكثر من جهة، فما يكاد ينخرط في مهمة إلا وتتبعها أخرى.

## 2- التوجه العلمي:

استطاع ابن خلدون، بالرغم من الظروف المحيطة به ومن عمله الشاق، أن يكون له شخصية علمية من خلال تلمذته وتواصله مع كبار علماء عصره، وتجربته الشخصية، إلا أنه لم يكن قد بلغ مكانة تسمو على مكانة الأديب أو المؤرخ. ونعتقد أنه في هذه المرحلة دخل في أزمة باتت تلازمه، من حيث فشله في تحقيق أحلامه، أو على الأقل الاحتفاظ بالمكاسب التي كان يحققها من حين إلى آخر. وأعني بأحلامه: تحقيق الرياسة السلطانية الثابتة، والاحتفاظ بها دون منازع، وقد دفع هذا ابن خلدون إلى التفكر في كيفية نيل السلطة السياسية، وما يساعد على الاحتفاظ بها طويلا. وقد كان هاجسه أصلا يضغط بهذا الاتجاه، واضعا من نفسه نموذجا، فأخذ يفكر فيما يعترض سبيل تحقيق تطلعاته شخصيا. ولنا هنا أن نفترض أن أول مشكلة واجهت ابن خلدون في مسعاه إلى نيل سلطة أعلى مما وصل إليه، والاحتفاظ بها بثبات واستمرار، كانت قد تركزت لديه بكشف سبب يبدو وجيها، ويحول دون تحقيق تطلعاته، ألا وهو: افتقاره شخصيا إلى العصبية؛ إذ إن جميع الطامعين في الحكم والساعين له، ممن وفقوا، تسندهم عصبية لها شأنها، (8) فيما يفتقر هو إلى هذا؛ مما ولد عنده شعورا بالإحباط.

لذا نرى أن ابن خلدون حينما عرض عليه منصب الحجابة في المرة الأخيرة يعتذر، ويوصي بمنح هذا المنصب لأخيه، وهذا بحد ذاته له دلائل عدة، من أبرزها: أنه بات يدرك أن شخصه ومسعاه أكبر من البقاء على هذه الشاكلة، من تولي المناصب والخروج منها. ويدرك كذلك أنه لن يستطيع الاحتفاظ به في ضوء هاجسه بالسعي إلى السلطة الأولى؛ لذا فضل تجنب الاستمرار في تقلد المناصب، وحتى القيام بالجهود الدبلوماسية التي كان يكلف بها ضمن ظروف غير مستقرة ومحفوفة بالمخاطر. وهو في غنى عن إعادة

(8) كان السلاطين ينتمون لقبائل، منها: بنو حفص في تونس، وبنو عبد الواد في تلمسان، وبنو مرين في فاس، وقد أقاموا سلطانهم إثر انهيار دولة الموحدين، وتنازعوا فيما بينهم السلطات.

وتكرار تجاربه السابقة التي مر بها، وهذا ما دفعه إلى الاهتمام بالتفكير في الدولة وكيف تنشأ، وتستمر، وتضمحل.

### 3- الانقطاع للعلم:

هاهنا نجد الهاجس الخلدوني ينعطف باتجاه آخر، كان يلح بدوره، وإن بدا خافتا أول الأمر، لكنه لم يلبث أن قوي أكثر، وتغلب على الاتجاه السياسي، الذي كان منغمسا فيه. وكان منطقيا أن يتجه إليه بعد كشفه لدور العصبية في نيل السلطة والاحتفاظ بها، وكيفية نشوء الدولة واستقرارها. وبما أنه شخصيا يفتقر إلى العصبية، أهم العناصر -في نظره- التي تقوم عليها دعائم الحكم، ولا سبيل بغيرها لنيل السلطة الأولى،(9) والاحتفاظ بها، فعليه إذن أن يخفف من جذوة هاجسه باتجاه تحقيق الرياسة السلطانية. وبما أن ابن خلدون كان قد مر بتجارب كبيرة، تؤهله حتما لتأريخ الأحداث والوقائع ومجريات الأمور في المغرب بما يجعله مرجعا تاريخيا لها، فربما يعوض هذا عن إحباطه السياسي، وربما يؤهله إلى النظر فيما يتجاوز مسألة تدوين التاريخ إلى فلسفته، والتوصل إلى قناعات في هذا الموضوع، من خلال تفكره في العصبية والدولة. ففتوره السياسي هذا كان لازما- أيضا- للاندفاع بقوة في مجال جديد. وهذا ما يفسر توجه ابن خلدون العلمي؛ عله ينجح عبر هذا السبيل بما لم يستطع تحقيقه في السياسة.

وبما أن الهاجس الخلدوني، قد تحرك باتجاه آخر بعد تعذر الرياسة السلطانية؛ نظرا للعقبات التي لا يمكن تجاوزها، وأهمها عدم توافر العصبية، فإن فكر ابن خلدون قد انعطف باتجاه تحقيق الرياسة العلمية، الشق الثاني الذي يميز أسرة ابن خلدون بشكل عام. فأسرته لم توسم برياسة سلطانية فحسب، بل ورئاسة علمية أيضا، وربما التوفيق يحالفه هنا، ويحقق ذاته، لاسيما أن لديه الكثير مما يمكن قوله، وفي كل الشؤون تقريبا.

وبعد إخفاقه في المسعى السياسي دخل ابن خلدون في تأمل عميق جاد، فلماذا لا يسعى إلى الرياسة العلمية وقد أصبح لديه الكثير الكثير مما يمكن قوله، بل والجديد الجاد

(9) يرى ابن خلدون "أن المطالبات كلها والمدافعات لا تتم إلا بالعصبية" انظر: **المقدمة**، مرجع سابق، ص573.

من النظرات حول التاريخ، ونشوء العمران والدول، ولديه الملاحظات الوفيرة حول كثير من المسائل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعلمية. ومن هنا ابتعد ابن خلدون عن أجواء السياسة ومجريات الأحداث، واعتكف متابعا تأملاته حول المسائل، التي بدت تثار في تفكيره، وتتوالد في ذات نفسه بسرعة فائقة. لكن كيف له أن يكون ذا رئاسة علمية؟! هل يتأتى هذا إلا بإتقان هذا الأمر، والإتيان بالجديد المفيد أولا، وبالإنجاز المعرفي ثانيا.

لقد تفرغ ابن خلدون كليا للتأليف، وشعر أنه قاب قوسين أو أدنى من تسلم رياسة علمية حقة، بشروطها التامة. وهذا دعاه إلى التوسع في كتابة التاريخ لفضاء أرحب وأوسع، بما يبين دور العمران في نشأة الدول واضمحلالها، ملاحظا الفرق بين مختلف المجتمعات التي تقلب فيها: كالحضر، والبداوة، أو الفروق بين التجمعات المختلفة، أو أنماط العلاقات الاجتماعية، والعادات، والتقاليد، إلخ. ولا ريب أنه بهذا سيطور منهجية لها شأنها في فهم التاريخ وتعليل حركته، وتقديم نظريات يمكن التعويل عليها في كيفية نشأة الدول، واستمرارها أو انحلالها. وهذا أشعل في فكر ابن خلدون نقاطا عدة، يمثل كل منها جانبا من جوانب اهتماماته، والمسائل التي حاول حلها. وجعله يفكر في كيفية لملمة خواطره وتأملاته، وتقديم رؤاه حول المواضيع المختلفة الهامة والجديدة في فكره. وقد يسر لابن خلدون المضي في مسعاه، توفقه في وضع تبويب أولي للمقدمة، استطاع أن يستوعب الكثير مما يود قوله في مختلف المسائل، بحيث يكون في هذا التبويب متسع لقول المزيد، وربما الحذف والاختصار.

ولم يكتف ابن خلدون في المقدمة بإيراد الجديد، ولكنه تناول جميع الموضوعات التي تشغل بال المفكرين والعلماء، بحيث جاء جهده كله، فضلا على إيراد الجديد، موسوعيا يكاد يعيد نظم معظم المعطى الثقافي حتى زمنه، مبينا فيه رأيه الشخصي في كثير من الأحوال، بما ينسجم مع المنهجية التي توصل إليها. والملاحظ هنا، بوجه عام، أنه قد استند في إعادة نظمه للمسائل إلى نزعة اسمية واضحة تحكم جميع آرائه تقريبا.

وحرص ابن خلدون، وهو يضع خواطره الأولية حول هذه المواضيع، أن لا يغفل عن سرد وقائع حياته وأخباره واهتماماته، مما حواه التعريف. فانقطع تلك السنوات الأربع

للتفكير والتأليف فيما جرى له، ومحاولة استنباط الرؤى والأسباب التي قصرت به عن مسعاه السياسي، وبهذا أخذ ابن خلدون يصيب الرياسة العلمية، مدركا أنه ينشئ علوما جديدة، ويطور علوما سابقة. إذن، ليس عليه بعد هذا الإنجاز إلا أن يعود إلى الحياة العامة، طارحا نفسه عالما يشار إليه، فاتجه إلى تونس؛ إذ إن تطلعات ابن خلدون السياسيةلم تنته نهائيا، وكانت تطل بين الحين والآخر. مما جعله موضع ريبة من السلطان، الذي وضعه تحت رقابته المباشرة، فكان إذا غاب يأمره بمرافقته؛[10] كي يبقى تحت مراقبته. ولما طال الأمر بابن خلدون على هذا النحو، وجد أن عليه أن يحاول الانفلات منه، وإبطال أساس الشك به، وذلك بمغادرة المغرب نهائيا، ومحاولة متابعة رياسته العملية في موطن يقدر هذا الأمر أكثر، ولا يخشى منه في الوقت ذاته على السلطة، فاتجه إلى القاهرة، حيث سوق العلم رائجة، فما كان منه إلا أن أوهم السلطان بأنه يزمع السفر إلى الحج، فأذن له،[11] لكنه استقر في القاهرة حيث بدا نجمه بالسطوع، وتولى وظائف علمية وقضائية رفيعة.

وبهذا نرى أن شخصية ابن خلدون ونتاجه، قد تبلورا من خلال دوافع خاصة، لها علاقة بتراث الأسرة، والهاجس الذي ملك عليه لبه، وهذا ما جعل نتاجه لصيقا بشخصيته وهاجسه.

**ثالثا: المنهجية الخلدونية:**

وبما أننا ذكرنا أن ابن خلدون لم يكن له جهده التنظيري الكبير، بالمعنى الفلسفي، حتى يتوصل إلى علوم أو يبطل علوما، وإن كان على درجة عالية من التحصيل والاطلاع الواسع بالثقافة العربية الإسلامية، وما ورثته من ثقافات، ويورد الخلاصات المركزة في هذا جميعا. فكيف تسنى لابن خلدون التوصل إلى الجديد؟ وما هي المنهجية أو الآلية الفنية التي اتبعها؟

(10)ابن خلدون. **التعريف بابن خلدون**، ص261.
(11)المرجع السابق، ص262.

طبعا لا يمكن إغفال دور هاجسه في تحديد توجهاته، وأيضا تأثره ببيئته، وتشربه بتلك النزعة الاسمية في كل أعماله. فهذه جميعا لها تأثيراتها البالغة، لكن هذا وحده لا يكفي في غياب المنهجية المنطقية النقدية المضنية، فإلى أي آلية أو منهجية ركن ابن خلدون حتى يمكن استكمال تفسير الأمر؟

في تقديري، وربما كان هذا مستغربا في ضوء ما كتب عن ابن خلدون، أنه لم يلجأ إلى آلية منطقية صورية أو مادية، وإن كان يستعمل هذا بين حين وآخر، وبشكل بعدي، وإنما لجأ إلى الحدوس الخاطفة. والحدس- بصرف النظر عن تباينه، كما قيل، عن أسلوب التنظير العقلي الشاق، والاستدلال بشقيه: الاستنباطي والاستقرائي- يتماهى بكل الخطوات والأساليب المنهجية. وغالبا ما يركن إليه في إيراد الجديد، مع احتمال نسبة من الخطأ فيه، بل إيراد آراء فجة غير مستوية. وفي الواقع فإن استثمار ابن خلدون للحدس بكثافة في التوصل إلى أحكامه، واستجلاء الغوامض، أعطاه ميزة كبرى في التوصل إلى الجديد، رغما عما أوقعه فيه من مثالب هنا وهناك. والحدس يمكن له أن يحلق بالفكر أو العكس من ذلك، وهذا بحسب الحصيلة، وسعة الخبرة، ووفرة المعلومات، ودقة الملاحظة، والدربة المتواصلة، بحيث يصبح ملكة تستعمل غالبا. وهو بحد ذاته، إدراك مفاجئ لعلاقة أو علاقات، ويحضر دون استئذان، وإن كان يحتاج إلى تحققات كي يثبت، ويوفر قضايا معتبرة تتبع الشواهد والأدلة، وهو بهذا يتماهى بالفروض إلى حد ما.

وقد أدرك ابن خلدون هذه الملكة في نفسه، آخذا على بعض الطرق الأخرى: كالمنطقية، والمحاكمات النقدية، العيوب الكثيرة، رغم الإشادة بها أحيانا في ظروف معينة،[12] لاسيما منطق الجهات، واقترح أن يتم اللجوء إلى الحدس، كمقدمة لا غنى عنها في حل الإشكالات والمعضلات التي يواجهها المفكر من خلال الطرق الأخرى.

(12) ذكر ابن خلدون عن المنطق أنه: "أصح ما علمناه من قوانين الأنظار" **المقدمة**، ج 3،ص1217، وبخصوص منطق الجهات يقول: "فليرجع الإنسان إلى أصوله، وليكن مهيمنا على نفسه، ويميز بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله ومستقيم فطرته، فما دخل في نطاق الإمكان قبله، وما خرج عنه رفضه، وليس مرادنا الإمكان العقلي المطلق، فإن نطاقه أوسع شيء، فلا يفرض حدا بين الواقعات، وإنما مرادنا بالإمكان بحسب المادة التي للشيء"، انظر :

يقول ابن خلدون، بعد أن يستعرض بعض المشكلات المنهجية عبر الطرق المنطقية: "فإذا ما ابتليت بمثل ذلك، وعرض لك ارتباك في فهمك، أو تشغيب بالشبهات في ذهنك، فاطرح ذلك، وانتبذ حجب الألفاظ، وعوائق الشبهات، واترك الأمر الصناعي جملة، واخلص إلى فضاء الفكر الطبيعي الذي فطرت عليه، وسرح نظرك فيه، وفرغ ذهنك له؛ للغوص على مرامك منه، واضعا لها حيث وضعها أكابر النظار قبلك، مستعرضا للفتح من الله كما فتح عليهم في ذهنهم من رحمته، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، فإذا فعلت ذلك، أشرقت عليك أنوار الفتح من الله، بالظفر بمطلوبك، وحصل الإلهام الوسط، الذي جعله الله من مقتضيات ذاتيات هذا الفكر، وفطره عليه كما قلنا، وحينئذ، فارجع إلى قوالب الأدلة وصورها فأفرغها فيه، ووفه حقه من القانون الصناعي، ثم اكسه صور الألفاظ، وأبرزه إلى عالم الخطاب والمشافهة، وثيق العرى، صحيح البنيان. وأما إذا وقفت عند المناقشة والشبهة في الأدلة الصناعية، وتمحيص صوابها من خطئها، وهذه أمور صناعية وضعية، تستوي جهاتها المتعددة، وتتشابه لأجل الوضع والاصطلاح، فلا تتميز من جهة الحق، إنما تستبين إذا كانت بالطبع فيستمر ما حصل من الشك والارتياب، وتسدل الحجب على المطلوب، وتقعد بالناظر عن تحصيله، وهذا شأن الأكثرين من النظار المتأخرين. والذريعة إلى درك الحق بالطبع، إنما هو الفكر الطبيعي، كما قلناه، إذا جرد من الأوهام، وتعرض الناظر فيه إلى رحمة الله تعالى، وأما المنطق فإنما هو واصف لفعل هذا الفكر، فيساوقه لذلك في الأكثر."[13]

نحن هنا إزاء نص مهم جدا، وأمام منهجية مختلفة نسبيا، وأمام عقلانية لم تحفل كثيرا بمستويات التنظير والجدل التي سادت قبله عند كبار الفلاسفة والفقهاء ومجمل المفكرين عموما، وإنما اصطنع لنفسه عقلانية جديدة، فيها قصور واضح عن مواكبة غيره، لكنها تتضمن أبعادا حدسية نافذة، تتبنى رؤى موفقة، كما حصل بتأسيسه لعلوم جديدة، وركونه إلى نظرة أو مرجعية اسمية في نتاجه. وهذا الموقف الاسمي لم ينظر له ابن خلدون

– ابن خلدون. **المقدمة**، ج2، ص566. ولاشك أننا هنا أمام تأثير ظاهر لابن حزم، ولابن تيمية.

(13) ابن خلدون، **المقدمة**، مرجع سابق، ص1247.

كما ينبغي، ولكنه اتبعه حدسا في كل نتاجه تقريبا. وبالطبع يمكن رد هذا إلى تمحيصه لنتاج كثير من المفكرين قبله والتأثر بها، أو اتخاذ مواقف منها: كابن حزم وابن تيمية في النزعة الاسمية، والغزالي في الحدس، وربما عبر تأثره بأساتذته، كالآبلي، شيخه في العلوم العقلية، وأساتذة هذا الأخير: كابن البناء، والمغيلي، اليهودي. إلا أنه كان يعي دور الحدس وقيمته أكثر منهم، كما أنه ركن إليه بوفرة في نتاجه.

والحدس–كما وعاه ابن خلدون واتبع هديه، ودعاه الإلهام– ليس خالصا، بل هو يترافق مع كل الخطوات المنهجية التي يمكن أن تتبع؛ إذ يتماهى بالفطرة، وبالتجربة، وبالاستدلال، وهو يرتكز أساسا على فضاء الفكر الطبيعي، أو على مرجعية عالم الشاهد والخبرة فيه، وقدرة العقل على اقتناص العلاقات والوسائط وفهمها. وكل هذا يتم في لمح البصر عند نقطة معينة، وكأنه إلهام، باستبعاد الأمر الصناعي وإشكالياته في البداية، بل قد يحجب الأمر الصناعي (المنطق ومناهج البحث) عنه، بتوارد الشبهات، والغرق فيها، مما يجعل الباحث في تخبط قل أن يسلم منه.

وهذا الفهم للحدس يبرز فيه تأثير ابن حزم والغزالي وابن تيمية، من جهة لفت الأنظار إليه، كما أن النزعة الاسمية ذاتها لدى ابن حزم وابن تيمية خاصة لها تأثيرها. لكن ابن خلدون يعطي الحدس أهمية كبرى حين يرى أنه وراء كل جديد، ليس لديه فحسب، بل لدى من سبقوه من النظار، وأنه يتماهي معهم بعمليات الاستدلال، غير أننا يجب أن نلاحظ ما يترافق معه من عناصر لازمة كالدافعية إليه، والخبرة بموضوعه، والمرجعية أو الخلفية الموجهة له.

**خاتمة:**

في وسعنا بعد هذا الطواف في عالم ابن خلدون القول: إن ابن خلدون، في إنجازه العظيم، توافرت له عناصر أساسية تبدو لازمة لإنتاج الجديد، منها: أولا: الدافعية القوية التي بلغت حد الهاجس، وتمثلت في تراث الأسرة العائلي، والشغف بالحصول على رياسة سلطانية، ثم علمية، في سبيل تحقيق الذات. وثانيا: الخبرة الكبيرة في عالم السياسة والدبلوماسية، والتقلب في الأمصار والعمران والمجتمعات، وهذا ما أكسبه معينا لا ينضب

من الوقائع والأحداث، التي يمكن كشف علاقاتها وملابساتها. وثالثا: مطالعاته وتحصيله الثقافي الواسع من مصادر شتى. ورابعا: الحدسية الشفافة السهلة، التي لا تغرق في التنظيرات والتعقيدات، أو تقصي الأدلة والبراهين وسبر غورها المعقد. وخامسا: المرجعية الاسمية، فهي قد أبقت معظم نتاجه على صلة بالواقع، ضمن المحسوس الملموس في عالم الشاهد. وسادسا: النفعية، التي مكنته أكثر من فهم خبايا النفس ونوازعها، وأبقت توجهاته ذرائعية وصولية، تهتم بالحراك الاجتماعي على علاته، دون المثالية والإغراق في أجواء معيارية حالمة. وأخيرا: توفقه في التبويب الأولي لمقدمته، بحيث استوعبت إعادة قراءة ونظم مجمل المعطى الثقافي حتى عصره بشكل موجز، سهل، حافل بكثير من النظرات النافذة.

إن هذه المنهجية والعناصر التي تستند إليها، هي في تقديري منهجية متميزة، ويمكن الاعتماد عليها، لا في تصويب المعلومات فحسب، ولكن بتجاوزها إلى تقديم الجديد. فالجديد لا يمكن تحقيقه إلا بهضم القديم، وتوافر الدافع، والتعويل على الخبرة الكافية في الموضوع مثار الاهتمام، ضمن إطار الواقع والأمور المحسوسة. إن هذا في مجمله يحتاج إلى استبصار وتدبر واستشراف؛ كي يتبلور أمامنا منهج جديد واعد، لا يمكن نسبته الفكرية والعملية إلا لابن خلدون، ذلك العلم الفذ في تاريخنا الثقافي الحضاري.